



التربية العقلانية في مقالات زكي نجيب محمود

أ.د. فائق مصطفى

جامعة السليمانية - العراق

ahmedfm86@yahoo.com

التربية العقلانية

في مقالات زكي نجيب محمود

أ.د. فائق مصطفى

جامعة السليمانية - العراق

التربية هي العملية التي تتحقق بها إنسانية الفرد وشخصيته الذاتية، وبها ينمو جسمه وعقله وعاطفته. ومن تعاريف (التربية) التي تعجبني تعريف الفيلسوف الألماني (كانط) الذي يفيد بأن التربية هي "ترقية جميع أوجه الكمال التي يمكن ترقيتها عند الفرد، وأن الهدف من التربية هو أن ننمي لدى الفرد كل ما نستطيع من كمال"^(١). أما "العقلانية" فتعني أن تستند مبادئ التربية وأسسها إلى ثقافة التنوير والتحديث القائمة "على الإيمان بقيمه وقيم العقل والعلم ومستتبعاتهما ونتائجهما ومنتوجاتهما التقنية والثقافية والسياسية والاقتصادية والحضارية الناضجة للمجتمع ولمؤسساته وبنياته وآليات اشتغاله، والمكرسة لقيم ومفاهيم الإنسان والمواطنة والحق والديمقراطية والعقلانية والتحرر... هي وعي نقدي متجاوز، نظريا وممارسيا، لعقل ولأفكار ومواقف ومعتقدات ومسلوكيات الجمود والتحجر والتقليد المتكلس وذهنيات الخرافة والمحافظة المتطرفة، ومجافاة حقائق ومقتضيات التطور والتجدد والتقدم، ورفض شرعية التعدد والاختلاف في العرق والمعتقد والتوجه والثقافة والانتماء الحضاري والسياسي والاجتماعي المتعدد المكونات والأبعاد والمدلولات"^(٢).

وهذه الثقافة العقلانية يسميها جابر عصفور بـ(ثقافة التقدم)، ويعرفها بأنها "ثقافة الاستنارة التي تعطي الأولوية للعقل، وتنحاز إلى الإبداع على حساب التقليد، وتشيع مفهوما موجبا عن الإنسان القادر على صنع العالم الذي يحلم به بإرادته الخلاقة، مختارا فاعلا مريدا دون قيد مفروض عليه. أعني الإنسان الذي لا تكتمل قدراته الخلاقة إلا بامتلاكه حريته التي تعني قدرته على الاختيار وحقه في الاختلاف والتجريب والمضي في المغامرات العقلية والروحية، بلا قيد بقيده أو إرهاب يعوقه. ويؤمن هذا الإنسان بأن وجوده على الأرض لا يكتمل إلا بالتفكير العلمي الذي يُرجع النتائج إلى أسبابها، ويستخرج من الأسباب نتائج جديدة، تضيف إلى ما قبلها إضافات كيفية لا كمية. والإيمان بالتطور وحتميته هو الوجه الآخر من

الإيمان بالعلم وأهمية توسيع آفاقه ومجالاته. ولا تناقض بين العلم والدين في فكر هذا الإنسان الذي يؤمن بأن العلم هو الوسيلة العملية والأداة الخلاقة التي تجعله جديراً بأن يكون خليفة الله على الأرض، والقادر على تحقيق السعادة لنفسه ولكل من حوله، وذلك بتأكيد قيم الحق والخير والجمال التي هي قيم التقدم التي يهدف إليها هذا الإنسان، ويرى فيها غايته التي لا تكف عن التجدد والمضي إلى أفق مفتوح من التطور الذي لانهاية له أو حد⁽³⁾.

إن التربية، في العصر الحديث، باتت الأداة والوسيلة الرئيسة لتحقيق (التنمية البشرية)، وواضح أن الجذر اللغوي للمصطلحين (التربية والتنمية) واحد وهو (ربا/ يربو) أي زاد وكثر. لقد أصبح مفهوم (التنمية البشرية) من أكثر وأهم المفاهيم تداولاً في الأدب التربوي والتنمية المعاصر، وذلك على اعتبار أن دلالاته الشمولية لا تقتصر على حصر عملية التنمية في جانبها الاقتصادي الضيق، كما كانت تروج لذلك بعض الخطابات الكلاسيكية الاختزالية، بل تتجاوز هذا الجانب لتنصب بشكل أساسي، على الإنسان، ولتجعل من المحور المحرك لكل تنمية اجتماعية شاملة، والعنصر الأساسي في المراهنة عليها. إن مفهوم التنمية البشرية يتجاوز في مدلوله ما يعرف في اقتصاديات التربية بمفهوم (تنمية الموارد البشرية)، (فهو) يتضمن المعنى الأنف ويتجاوزه في الآن ذاته متسعاً لكل ما من شأنه أن يساهم في إنماء الإنسان، سواء كان ذلك عبر أنظمة التربية والتعليم والتكوين المختلفة، أو بواسطة كل الوسائل والاستراتيجيات والمؤسسات والمجالات التي تستهدف. في إطار مواصلة اجتماعية شاملة. إنماء القدرات الفكرية والنفسية والبيولوجية للأفراد، وتسلحهم بالخبرات والمعارف اللازمة ونمط الوعي الثقافي والاجتماعي المطابق. وذلك من أجل جعل هؤلاء متوفرين على أهم المؤهلات الضرورية التي تمكنهم... من المساهمة الإيجابية والمبدعة في عملية التنمية⁽⁴⁾.

أما أبلغ تعريف للتنمية فقد وجدته في كتب محمد عابد الجابري، وهو أن التنمية هي "العلم حين يصبح ثقافة"، والتخلف هو "العلم حين ينفصل عن الثقافة". وهو "الثقافة حين لا يؤسسها العلم"⁽⁵⁾.

ويطبق الجابري هذا المفهوم للتنمية على واقع البلدان العربية "لنأخذ البلدان العربية مثلاً، وسواء اخترنا منها تلك التي تعاني وضعية اقتصادية متأزمة تسودها البطالة وضعف القدرة الشرائية وتورقها الديون الخارجية، أم تلك التي تعيش نوعاً من الرفاه الاقتصادي الاستهلاكي بفضل عائدات النفط، فإننا سنجد في كلتا الحالتين أن العلم فيها، سواء كمعارف أو كتقنيات وآليات، يشكل عالماً يختلف تماماً، بل ويتناقض، مع عالم الثقافة السائدة: الثقافة بمعناها الواسع الذي يشمل السلوك والتقاليد والنظام الاجتماعي والسياسي والحياة الفكرية والعقلية

السائدة. والنتيجة قيام كيان المجتمع على كتلة من المفارقات والتناقضات: التناقض بين السيارة التي من آخر طراز (مثلا) وبين سلوك راكبها الذي مازال يحتفظ في مظهره ومخبره، بسلوك راكب الفرس أو راكب الجمل المتباهي المتسابق، أو راكب البغلة: العين الوجيه أو العالم العلامة.. التناقض بين المكتبة الأنيقة التي تعمرها الكتب المجلدة "الشمينة" ويتوسطها مكتب فخم وأقلام رفيعة وزرابي نفيسة، وبين صاحبها الذي لا يدخلها إلا حين يريد إطلاع زواره عليها وعلى مفاخرها... دع عنك المستوى الفكري وطريقة التفكير جانبا⁽⁶⁾. هذا ما كتبه الجابري في عام 1994، أما الآن فهذا التناقض الذي أشار إليه، بين عالم العلم وعالم الثقافة (سلوك الناس وتفكيرهم)، زاد كثيرا، والدليل على ذلك شيوع التطرف والعنف وعبادة الماضي، والتفكير الخرافي... الخ، بين الكثيرين في المجتمعات العربية. من هنا تكون الحاجة ماسة إلى هذا النوع من التنمية، الذي يسهم في تحويل العلوم والمعارف إلى ثقافة حياتية تظهر آثارها في التفكير والعمل والتعامل مع الغير، والنظرة إلى الدين والتنوع الثقافي... الخ.

اخترت، في مقالي هذا، مقالات الكاتب والمفكر المصري المعروف زكي نجيب محمود (1905-1993) مثلا وأنموذجا لما يمكن أن يسهم به الأدب في تحقيق التنمية، وذلك لتجسيد مقالاته الأدبية أفكارا تنويرية تشكل أسس تربية عقلانية ناضجة، نستطيع استثمارها، في ميادين التربية بالمدارس والجامعات ووسائل الإعلام، سعيا منا لتحويل التعليم إلى ثقافة حياتية تعمل على بناء شخصية الطالب بناء حضاريا.

إن مقالات زكي نجيب محمود . على نحو عام . تعلي من شأن العقل، وتدعو إلى الاحتكام إلى حكمه في كل شؤون الحياة حتى ترقى الحياة ويتقدم المجتمع. فكل من يقرأ هذه المقالات يدرك أن الكاتب يعنى كثيرا، ويؤكد مصطلح (العقل) ومرادفاته مثل (الحكمة) و(الفكر) و(التدبر) و(التأمل)، ويرى فيه الخلاص مما نعانيه من هموم ومشكلات ثقافية واجتماعية وسياسية. إنه يفسر كل شيء تفسيراً عقلانياً وعلمياً فيربط بين الظواهر وأسبابها، والمقدمات ونتائجها، ربطاً سليماً حتى إنه يحدد معنى العقل في "الحركة التي أنتقل بها من شاهد إلى مشهود عليه، ومن دليل إلى مدلول عليه، من مقدمة إلى نتيجة تترتب عليها، من وسيلة إلى غاية تؤدي إليها تلك الوسيلة. وأهم كلمة في هذا التحديد كلمة (حركة)، فإذا لم يكن انتقالاً من خطوة إلى أخرى تتبعها، فلا عقل. إذا أدركت شيئاً دون أن تنتقل من هذه الحالة إلى الإدراكية إلى حالة تليها وتتوقف عليها، فلا عقل.... واختصاراً فإن حد (العقل) هو أن ينتقل الإنسان من معلوم إلى مجهول، من شاهد إلى غائب، من ظاهر إلى خفي، من حاضر إلى مستقبل لم يحضر بعد أمام البصر، أو إلى ماضٍ ذهب وانقضى...."⁽⁷⁾.

في مقالة (نموذج المتمدن) حدد زكي نجيب محمود عناصر (المدنية) بثلاثة، أولها (العقل)، والثاني (الإحساس بالجمال)، والثالث (المقدرة على ضبط النفس). والعقل فمن أهم علاماته «التقيد بالواقع، وإدراك الواقع كما هو، يتطلب القضاء على الخرافة بكل ما يتصل بها من لواحق وأتباع. وللتخريف مظهران أساسيان في طريقة تعليلنا للحوادث والظواهر، الأول أن نعلل حدوث الأشياء المحسوسة بأشياء غير محسوسة. والثاني أن نعلل شيئاً محسوساً بآخر محسوس، لكنه لا يرتبط معه ارتباطاً يدل عليه طول الملاحظة ودقة التجربة، فلو قلت مثلاً إن المرض في جسم المريض سببه شيطان حال في الجسم، أو إن السماء ترعد وتبرق لأنها غاضبة، فأنت مخرف من النوع الأول، ولو قلت إن السفر يوم الأحد مشؤوم، ونعيق الغراب نذير الموت، فأنت مخرف من النوع الثاني. وفي كلتا الحالتين أنت خارج بإدراكك للأشياء على منهج المتمدن) الذي أبرز ما فيه هو العلم وما يؤدي إليه، وما ينتج عنه»⁽⁸⁾.

ولأن زكي نجيب محمود أستاذ فلسفة، ومؤمن بدورها الخلاق في المجتمع، فقد عمل بحماس على القيام بأهم الوظائف والمهام التربوية والمعرفية والاجتماعية التي أسند القيام بها إلى الفلسفة في المجتمعات الغربية، وهي:

1. الاستمرار في القيام بمهمتها التويرية دعماً لمسيرة العقلنة التي دشّنها المد التنويري منذ بداية النهضة الغربية الحديثة، والهادف إلى مقاومة الرداء الفكرية والقيمية، ونشر الثقافة البورجوازية بكل رموزها ومعاييرها وقيمتها التقدمية التي تحل العلم والمعرفة والعقل محل الخرافة والمعتقدات الخلقية والدينية المنحدرة من العهد الإقطاعي البائد.

2. التبرير الفكري للأساس العقلاني الذي تقوم عليه القاعدة التنظيمية للمجتمع العصري، مجتمع المؤسسات والتنظيمات التي تحكمها. على عكس مثيلاتها في المجتمعات التقليدية. قواعد ومعايير لاشخصية، لا يتم الاحتكام فيها إلا للعقل.

3. وعلى المستوى السياسي والايديولوجي، انخرطت الفلسفة المدرسية والجامعية في السياق الغربي. وسواء بشكل علني أو ضمني حسب الوضعيات الاجتماعية المختلفة. في مسلسل الدعوة إلى تدعيم الجمهورية كفكرة وكتقييم اجتماعية وحضارية وثقافية للدولة الوطنية الحديثة⁽⁹⁾.

تقوم التربية العقلانية التي يدعو إليها زكي نجيب محمود، بشكل ضمني في مقالاته الأدبية، على أسس عديدة، لكننا في مقالنا هذا، سنتناول خمسة أسس منها، وهي:

أولاً: احترام إنسانية الإنسان:

أي الاعتراف بكيان الإنسان الفردي، وبأن الإنسان هو الأساس والجوهر الذي لا يمكن

تجاهله أو الحط من قدراته أو عقليته، أو اعتباره رقما من الأرقام يسهل استبداله بأي رقم آخر. لا يجوز بأية صورة من الصور، هدر الإنسان لأن هذا الهدر «يضرب مشروع وجود المرء كي يصبح كيانا ذا قيمة وقائما بذاته، وذا دلالة ومعنى واعتبار وامتلأ وانطلاق، مما يمكن أن يلخص في بناء هويّة نجاح هذا الوجود. الهدر على هذا المستوى هو نقيض بناء التمكين والاقتدار وصناعة المصير»⁽¹⁰⁾.

إننا عندما نقرأ مقالات زكي نجيب محمود، نرى إقراره وتأكيداه واحترامه لشخصية الإنسان الخاصة، ودعوته الفرد إلى الشعور بشخصيته المتميزة، واعتزازه بها، وعدم التفريط بخصوصيتها في الميادين كافة (الأسرة والمجتمع والدولة). ففي مقالة (مطلوب إنسان) يدعو الكاتب إلى النظر إلى الكائن البشري نظرة إنسانية بدلا من النظرة النفعية التي تعد الإنسان وسيلة لتحقيق غاية، وليس غاية في نفسها، فهو عندما يسأل هذا السؤال: متى يكون الإنسان «إنسانا» بالمعنى الصحيح؟ يكون جوابه «يكون كذلك بمقدار ما يبعد عن وزنه لنفسه ولسائر الناس بميزان الجزارين والبقالين، يكون الإنسان إنسانا حين يعرف للإنسانية حقها بغض النظر عن نفعها. انظر إلى الجسد البشري. كائنا من كان صاحبه. نظرك إلى الشيء المقدس المهيب. يكفي أن يكون الكائن الذي أمامك واحدا من البشر ليستوجب احترامك بل إجلالك وإكبارك لهذا الذي خلقه الله فسواه وكرمه. إننا لو قدسنا البشرية في كل فرد من أفرادها، وضعنا بذلك أرسخ أساس للحرية والإخاء والمساواة بين الناس. ألا من يبلغ عني كل متجبر متكبر أنه إذا ظن نفسه واقفا على قمة جبل بالنسبة إلى سائر الناس، ينظر إليهم فيراه في عينيه صغارا ضئلا، فهؤلاء الناس كذلك ينظرون إليه من بطن واديهم، فإذا هو أيضا في أعينهم صغيرا ضئيلا، لأن المسافة بينهم وبينه كالمسافة بينه وبينهم. يكون الإنسان (إنسانا) بمقدار ما يرى في كل فرد من الناس غاية مقصودة لذاتها، لا وسيلة تخدم غاياته وأغراضه»⁽¹¹⁾. ما أصدق هذه الكلمات، وما أروعها، في احترام الإنسان!! تقال في مجتمعات عربية لا يزال الإنسان فيها مهمشا، مسلوب الإرادة والحقوق بكل أنواعها. وما أحوجنا إليها في ميادين التربية، لتتير طريقنا نحو الاعتراف بشخصية الفرد وحقوقه!!.

أما في الميدان الأسري فزكي نجيب محمود يلغي المقولة الكلاسيكية التي تذهب إلى أن الوالد يكرر نفسه في أبنائه، فالابن نسخة من أبيه، قائلا: "فلكل ولد شخصيته الفريدة المستقلة القائمة بذاتها، وقد أعلنت الطبيعة ذلك إعلانا صريحا يوم قطعت القابلة الحبل السري الذي كان يصل الجنين بأمه، ففصلتهما شخصين بعد أن كانا شخصا واحدا. إن صميم الحياة في كافة الأحياء هو هذا التفرد، فيستحيل عليك أن تجد على سطح الأرض من أقصاها إلى أقصاها ورقتين من أوراق الشجر متماثلتين كل التماثل. وانظر إلى بصمات الأصابع كيف

يستحيل تكرارها في شخصين على نحو يحقق التطابق التام⁽¹²⁾. لكن الكاتب يعمم ظاهرة إهمال شخصية الفرد، ويحصرها في الشرق كله. وهذا ما لا نتفق معه فيه "الحضارة الشرقية كلها تغفل شأن الفرد وتجعله جزءا من شيء أعم منه، فهو عند العرب جزء من القبيلة، فلا وزن له إلى جانبها ولا قيمة له بالقياس إليها. وما كذلك اليونان لأن الفرد عندهم هو محور التفكير، حتى الآلهة عندهم أفراد لهم مميزاتهم ومشخصاتهم، ومن هذين الاتجاهين المختلفين في الشرق والغرب، نشأت الديانات في الشرق، ونشأ العلم والأدب في الغرب لأن معظم الديانات أساسها التوحيد بين الظواهر المختلفة، وأما العلم والفن فأساسهما التمييز بين تلك الظواهر، العلم يميز الأنواع، والفن يميز الأفراد، وهكذا لم يعرف الشرق (أشخاصا فردية) فلم يعرف مسرحية ولا قصة"⁽¹³⁾.

ثانيا: نبذ الدين المظهري:

مثلما العلم يتحول وينحصر في الحصول على الشهادة والوجهة الاجتماعية فقط، في المجتمعات العربية، كذلك ينحصر الدين في أداء الفرائض والطقوس فقط، وينأى عن دوره الفعّال في الحياة الاجتماعية، كثقافة تدعو إلى إشاعة الفضائل كافة، ونشر المحبة والعدالة بين البشر، والحث على الأخلاق الحميدة. وهذا الأمر يحدث في مجتمعاتنا ضمن ثقافة تغليب الظاهر على الباطن، ولاسيما تغليب الكلام على الفعل. هذه الثقافة الشائعة عندنا، والمسببة لأغلب جوانب تخلفنا الحضاري في الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتعليم.

في مقالة (الحوار مع الصغار) يتحدث زكي نجيب محمود عن مقال نشرته إحدى المجلات، خُصص كله لتوجيه سهام مسمومة إلى كاتبنا، واتهامه بالكفر والزندقة، فقال عن صاحب المقال «وجدت الرجل قد أظهر منذ السطر الأول وهما في رأسه بأنه صاحب حق في الحكم على ضمائر العباد وقلوبهم!.. إنه ينثر أحكامه بالتكفير وبالإلحاد نثرا بغير حساب، مما دلّ على ضعف ثقته بإيمانه، لأنه لو اشتدت عنده الثقة بنفسه، لما أخذته الغيرة من إيمان الآخرين، وهو يعلم أن كلا من هؤلاء الآخرين مسؤول أمام ربه بمثل ما هو مسؤول، ولأمر فلسفة اللغة العربية، جاءت كلمة (التكفير) قريبة الشبه من كلمة (التفكير)، كأنما أرادت قوة البيان في اللغة العربية أن تقول للناس إن تحريف الأوضاع لحرفي الكاف والفاء، مبعثه أن حركة العقل عند تكفيره للآخرين، إنما هي حركة أصابتها لعثمة، فتعثر الحروف عن مسارها المستقيم، فقد أراد أصحابها ضربا من التفكير المنتج، لكن مرضا في عقولهم أنزل الكساح بذلك التفكير المطلوب، فتعثر خطاه، فانقلب تكفيرا يؤدي الناطق به قبل أن يؤدي أحدا سواه. ومثل هذا الكساح الفكري يشيع إذا ما أصيب القوم بفقر في قدراتهم العاقلة وهزال في حياتهم الثقافية بوجه عام. ولقد تكرر حدوثه في تأريخ الأمة العربية نفسها، فكلما وهنت القوى وفترت العزائم،

نشطت حركة التكفير لتفتك بأي رجل هداه الله إلى ما يرفع به رأسه عن الغث الهزيل (....) ضع أمامك قائمة بأعلام نهضتنا الحديثة، وسل نفسك من من هؤلاء الأعلام بنى مجده ومجدنا على تكفير الناس؟، ألسنت ترى معي أن الأمم بينها جهود إيجابية تضيف علما إلى علم، وفنا إلى فن، وثراء إلى ثراء، ونورا إلى نور، ولا بينها أبدا هجمات سلبية تتال من حياة الناس بدل أن تزيدهم حياة على حياة؟. لقد ابتسمتُ عندما قرأتُ لذلك الكاتب في مقالته تلك، عبارة يتهددني بقطع لساني بشاطور! يا سبحان الله!.. وماذا يضيف إلى أمته بأن يُعمل شواطيره في حلوق خلق الله»⁽¹⁴⁾.

بعد ذلك يذهب كاتبنا إلى أن هناك فراغا في نفوس الشباب، يريد أن يمتلئ. وهذا الفراغ يمكن أن يجيء عن طريق الإيمان القوي بعقيدة الدين، وهذا الإيمان يتمثل في «أن يلتمس الإنسان رضى ربه في خدمة الإنسان، فماذا ينفع المريض من عابد لم يجعل جزءا من عبادته أن يخفف عنه المرض؟.. ماذا يفيد الأمي من متعلم لا يمسك بيده، فلا يتركها إلا وهي تخط على الورق؟.. ماذا يشبع الجائع أو يكسو العاري من شعائر يقيمها المؤمنون لأنفسهم ولا يتبعونها، بم يعلمهم كيف يعملون وماذا ينتجون لتمتلئ البطون الجائعة، ولتكتسي الأبدان العارية؟»⁽¹⁵⁾. وهذا ما نجده عند بعض الشباب الذين يجسدون إيمانهم بالتطوع في خدمة الناس، بصور مختلفة، حسب تخصصاتهم والتخفيف عن معاناتهم، ومساعدة النازحين الذين تعج بهم الأرض العربية، في هذه الأيام. وهذا كله نجده عند كاتبنا بسبب نظرته العقلية إلى الدين، وهو، في اتجاهه هذا، متأثر برائد الإصلاح الديني الشيخ محمد عبده الذي يقول عنه إنه "أخذ - بكل جهده - يوضح العقائد الأساسية في الإسلام، توضيحا يبيّن استنادها إلى منطق العقل، فجعل الأصل الأول لهذا الدين هو (النظر العقلي)، وعنده أن هذا النظر العقلي هو وحده وسيلة الإيمان الصحيح، قائلا في ذلك: إن الإسلام يقاضينا إلى العقل، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن إلى سلطته، فكيف يمكنه بعد ذلك أن يجور أو يثور عليه. ذلك هو الأصل الأول من أصول الإسلام، وأما الأصل الثاني فهو تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض، أي إنه إذا تعارض العقل وظاهر الشرع، أخذنا بما دل عليه العقل، محاولين بعد ذلك تأويل ذلك الظاهر تأويلا يعطيه من المعنى ما يتفق مع أحكام العقل.

انظر مثلا إلى تفسير الشيخ محمد عبده للحسد، إنه إذا جعل شر الحاسد إذا حسد، مجرد نظرة ينظر بها الحاسد إلى المحسود، لجافى حكم العقل، لأن النظرة وحدها لا تحرك ذرة من مكانها، فكيف تصيب أحدا في ماله أو عياله أو صحته؟.. إن القائل بمثل هذا هو بمثابة من يرد النتائج لغير أسبابها الصحيحة، وبالتالي فهو يحتكم في هذا إلى غير العقل ومنهجه في التفكير والتعليل. أما إذا فهمنا (الحسد) على أنه فعل إيجابي يبذله الحاسد ليغير به من

حالتك على النحو الذي يريده أن تتغير به، وهو بالطبع يفعل فعله ذلك في الخفاء، ليهدمك من حيث لا تدري، ومن حيث لا تتخذ الحيطة اللازمة لدرء الخطر عن نفسك، فإن مثل هذا الفهم يحيل الحوادث إلى تعليلها الذي يجيزه المنطق العقلي»⁽¹⁶⁾.

ثالثاً: الحرية ورفض الطغيان:

من المبادئ الرئيسة لحركات التنوير التي شهدتها أوروبا منذ القرن السابع عشر حق الإنسان في الحرية لأنها شرط لاغنى له لتمكين الأفراد من تنمية قدراتهم ومهاراتهم وتحقيق ذاتهم بما يتفق مع رغباتهم. وقد بنى فلاسفة التنوير حقوق الإنسان على حقين اثنين، يتفرع عنهما جميع الحقوق الأخرى، وهما حق الحرية وحق المساواة، وجاءت هذه الحقوق في «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، الصادر عن الأمم المتحدة عام 1948. وفي الإسلام أهم دليل صريح على الاعتراف بحق الإنسان في الحرية، وهو قول عمر بن الخطاب «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

تشكل ثيمة الطغيان علامة بارزة في مقالات كاتبنا، فهو يشير إليه دائماً تارة على نحو خفي، وتارة على نحو صريح. ففي مقالة «نفوس فقيرة» يصرخ بأعلى صوت محذراً من خطورة الطغيان في الشرق وتحكمه في كل ميادين الحياة، «أي والله، لقد ضرب الطغيان بجذوره في ربوع الشرق منذ آمد بعيدة سحيقة، حتى أصبحت لفظتا الشرق والطغيان مترادفتين أو كالمترادفتين، فهما تصادفانك متجاورتين متلاصقتين في كثير من الآداب الأوربية. لا، إنني أرى الكلمة على شفتيك فلا تقلها! لا تقل دهشاً: أي طغيان؟ لا تقل إن لنا دستوراً يجعل الناس سواسية ويحرم الطغيان، فالطغيان في دمائنا: الحاكم الشرقي طاغية، والرئيس الشرقي طاغية، والوالد الشرقي طاغية، والزوج الشرقي طاغية، والموسر الشرقي طاغية، طغاة هؤلاء جميعاً، لأن في نفوسهم هزالاً يعوضونه بمظاهر الاستبداد بسواهم... العظيمة في الشرق معناها الطغيان، والطغيان من معانيه كسر القوانين، فيستحيل أن يكون العظيم عظيماً عندنا، إن أطاع القانون، حتى لو كان هذا القانون من وضعه هو، لأن العيب بالقيود هو عندنا الحد الفاصل بين السيد والمسود، فقل لي إلى أي حد تستطيع في الشرق أن تعبت بالقانون والنظام، أقل لك في أي مرتبة أنت عن مراتب المجتمع، فأعلاها منزلة أكثرها عبثاً، وأدناها أقلها»⁽¹⁷⁾.

وفي مقالة (الطاغية الصغير) يعرض الكاتب لقصة غريبة تثبت استبداد الزوج الشرقي، فالمثل الأعلى في الأسرة المصرية، أن يكون الزوج صاحب الكلمة النافذة على زوجته، وكادت أن تكون هي صفراً من كل حق إزاءه، فهو يحاسبها وهي لا تحاسبه، البيت بيته هو، لا بيتها، والأبناء أبناءه هو. وحدث في ليلة ليلاء من ليالي الشتاء، أن تأخر الزوج عن مواعده المألوف،

فنامت الزوجة ونام الأبناء، حتى إذا ما انتصف الليل، نهض أحد الأبناء فزعا لأنه سمع أمه تبكي. لماذا؟ لأن الوالد عاد إلى الدار ومعه سمك، وأمر الزوجة التي استيقظت ذاهلة في تلك الساعة من الليل، أمرها أن تعد له من هذا السمك عشاء، وهمت الزوجة أن تعترض على هذا الأمر الشاق العسير، فكان ما كان من ثورة وغضب وصياح. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فالزوج أقسم بالطلاق ليقذف بالسمك في النيل!. ومن ثم كانت دعوته للابن الصغير أن ينهض من نومه ليعمل له السمك، ويصحبه في هذه الساعة من زمهرير الليل، إلى النيل!.. والشر بعضه أهون من بعض، فخرج الصبي مع أبيه على هذه الحال، أهون شرا من خراب الأسرة وانفصال الزوجين⁽¹⁸⁾.

وينهي الكاتب هذه القصة قائلا: "لما قرأت قول هيجل إن أهل الشرق لا يعرفون إلا أن تكون الحرية لرجل واحد، وإن حرية هذا الرجل الواحد لا تكون إلا اندفاعه وراء نزواته، ارتسمت في ذهني صور لرجال ثلاثة: منهم هذا الوالد صاحب السمك، بل إنني بعد قليل من تفكير وتدبر وتذكر، لم ألبث أن أتبين أننا - أهل الشرق - قد أقمنا على أنفسنا من أنفسنا، في كل منعطف من طريق حياتنا، طاغية صغيرا"⁽¹⁹⁾.

رابعا: الإحساس بالجمال:

وهو العنصر الثاني من عناصر (المدنية) بعد (العقل) عند زكي نجيب محمود، والمقصود به (الجانب الوجداني) من (المتمدن) الذي يتأثر بما ينتجه رجال الأدب والفن المحدثون، «فأنت متخلف عن عصرك ومدنيته إذا لم تأخذ بنصيب. قليل أو كثير. في تقدير ما ينتجه هؤلاء الرجال من أدب وتصوير ونحت وموسيقى وتمثيل ورقص وغناء، مهما يكن عملك وموضوع اختصاصك، فقد تكون طبيبا أو مهندسا أو رجلا من رجال الأعمال، لكنك لكي تكون إلى جانب ذلك (متمدنا)، فلا بد من إضافة عنصر آخر، هو التمتع بنتاج الفنون»⁽²⁰⁾.

إن الإحساس بالجمال يسهم إسهاما فعلا في بناء الفضائل الإنسانية، ويتم ذلك بطريقة خاصة يوضحها أحمد أمين على النحو الآتي "إن للذوق (الإحساس بالجمال) مراحل كمراحل الطريق، ودرجات كدرجات السلم، فهو يبدأ بإدراك الجمال الحسي: من صورة جميلة، ووجه جميل، ومنظر طبيعي جميل. ثم إذا أحسنت تربيته ارتقى إلى إدراك جمال المعاني: فهو يكره القبح في الضعة والذلة، ويعشق الجمال في الكرامة والعزة، وينفر من أن يظلم أو يُظلم، ويحب أن يعدل ويُعدل معه، ثم إذا هو ارتقى في الذوق كره القبح في أمته وأحب الجمال فيها، فهو ينفر من قبح البؤس والفقر والظلم فيها، وينشد جمال الرخاء والعدل في معاملتها، فيصعد به ذوقه إلى مستوى المصلحين. فالإصلاح المؤسس على العقل وحده لا يجدي، وإنما يجدي

الإصلاح المؤسس على العقل والذوق جميعاً. ثم لا يزال الذوق يرقى إلى أن يبلغ درجة عبادة الجمال المطلق والفناء فيه⁽²¹⁾.

وفي مقالة (إلى سادتي الحكام) يربط زكي نجيب محمود بين الخير والجمال، ويتخذ من ذلك وسيلة لإدانة الحكام الذين لا يعرفون (العدل) الذي هو خير وجميل. تُستهلّ المقالة بقول أفلاطون "إن الخير والجميل شيء واحد". وهذا ما دفع الكاتب إلى التفكير في هذا القول "تُرى ماذا يعني كبير الفلاسفة اليونان بقوله هذا؟ وانتهيت إلى تحليل أَرْضاني، تترتب عليه نتيجة هي التي أردت أن أسوقها إلى سادتي الحكام في هذا البلد، وهي أن كل ما في هذا البلد المسكين قبيح ذميم بفعل هؤلاء السادة أنفسهم، وعجبت أن يعنى السادة بالجمال في مساكنهم الخاصة وفي ملابسهم ومآكلهم وشتى جوانب حياتهم الشخصية، ثم لا تمتد هذه العناية قليلاً لتشمل شؤون الشعب الذي ألقى إلى أيديهم بزمامه... فماذا يعني فيلسوفنا بأن الخير هو نفسه الجمال؟"⁽²²⁾. بعد ذلك يبدأ بتفسير ذلك فيرى أن الجمال هو احتفاظ الجسم بنسب معينة بين أجزائه، وفكرة تناسب الأجزاء والوقوف بالشيء عند حدّ يرضاه الذوق والعقل معاً، في غير إسراف في هذا الطرف أو ذاك، شغلت الفكر اليوناني. ويأتي بمثال على ذلك جمال المرأة الذي ينتج عن احتفاظ أجزاء جسمها بنسب معينة، فمثلاً إن أنسب طول للذراع هو نفسه الطول الذي يجعل الذراع في أحسن حالة تمكّنها من الحركة السهلة، وأنسب طول للساق هو نفسه الطول الذي يجعل الساق في أحسن حالة تمكّنها من الحركة السهلة، وهكذا فكأنما الذي يقرر لنا تلك الأطوال والمقاييس هو مدى قدرة الأعضاء على أن تحتفظ لنا بالحياة والبقاء القوي السليم. ومادام الإنسان يتوافر لجسده شرط الجمال حين تتوافر له سهولة الحركة، إذًا فليجعل من الحركة المناسبة مقياساً يقيس به جمال الجدول الجاري وانطلاق الصوت وكل ما يذكره بحركة الحياة النامية في جسده هو. وطبّق هذا المفهوم عن الجمال، على الصحة والغنى، فالصحة تتحقّق للجسم حين تلتزم عناصره نسباً معينة، فإذا زاد أو قلّ السكر أو الزلال أو الملح عمّا ينبغي، اعتل الجسم، كذلك المال أساس الغنى يكون خيراً عندما تكون هناك نسبة معينة لا بدّ أن تراعى لإنفاق مقادير معينة من المال بين كسبه وإنفاقه، فإذا كسب مالا ولم ينفقه، لم يكن عند الناس موضع مدح، كذلك إذا أنفق مالا ولم يكسبه. ويخلص من كل ذلك، وهي أن الحكام اختل بين أيديهم الميزان فاضطربت النسبة الصحيحة بين الأشياء والأوضاع، لذلك امتلأت البلاد بالقبح الذميم لأنها امتلأت بصنوف الشر، والشر هو القبح، والجمال هو الخير⁽²³⁾.

خامساً: السعادة؛

تطرق الفلاسفة كثيراً إلى مفهوم «السعادة» والطرق الموصلة إليها، واختلفت آراؤهم فيها،

وأشهرهم أفلاطون وأرسطو وكانت⁽²⁴⁾. لكن المفهوم الذي يفيدنا، في تحقيق التنمية المنشودة، هو المفهوم الذي يربط بين السعادة والبساطة، وقد تبناه بعض المفكرين مثل أحمد أمين الذي رأى "في بساطة العيش راحة النفس، وحفظ الصحة، وحسن التفاهم، والتخفيف من الأعباء المالية، وشعور بأن الحياة المادية ليست كل شيء في الحياة حتى يضيع كل الزمن في تعقيداتها وتركيباتها، فهناك حياة روحية سامية جميلة تستحق أن يوفر لها جزء من الزمان، ويخصص لها وقت من التفكير"⁽²⁵⁾. وجاء بعده زكي نجيب محمود، فكتب مقالة (قميص السعادة) دعا فيها إلى المفهوم نفسه. استهل المقالة بحكاية رجل أراد أن يكون هدفه في الحياة البحث عن السعادة، فقام برحلة يبحث عن أسعد إنسان على وجه الأرض، حتى يلبس قميصه لتنتقل إليه السعادة منه. "وانطلق صاحبنا يبحث عنه في الحضر تارة وفي البادية طورا، يبحث عنه في القصور مرة، وفي أكواخ الريف مرة، حتى جاء به يوما إلى رجل شهد لنفسه، وشهد له الناس من حوله أنه سعيد هانئ، لم يعرف قط في حياته كيف تضيق النفوس وتخرج الصدور.. فإذا هو عريان الجسد لا يملك قميصا. عاد الرجل من سفره وهو يتدبر ما وجد وما رأى.. ها هو ذا الحق قد وضع أمام عينيه أبلغ ناصعا، لم تعد السعادة في رأيه مشكلا معضلا، ففيم هذا الكلام الطويل العريض الذي ما انفك يديره الناس في أفواههم عن السعادة والحياة السعيدة؟. إن اللغز لم يعد لغزا، إن سر السعادة قد افترض، سر السعادة في قلة الحاجات، فقل لي كم تتطلب لحياتك من حاجات، أقل لك كم أنت سعيد. هي عملية حسابية أولية بسيطة: لو بلغت حاجاتك صفرا كانت لك مائة السعادة كلها، وتزيد حاجاتك فيهبط مقدار السعادة في نسبة عكسية دقيقة"⁽²⁶⁾.

وبعد إيضاح هذا المفهوم عن السعادة يبدأ الكاتب بسرد قصص الذين طبقوا هذا المفهوم في سيرهم أمثال الفيلسوف الإغريقي ديوجنيس الذي اكتفى من دنياه ببرميل يقيم فيه، فلما جاءه الإسكندر يسأله: ماذا تريدني أن أصنع لك عن معروف؟ أجابه: لا أريد منك سوى أن تبعد عني الآن حتى لا تحجب ضوء الشمس. ثم أورد حكاية الفيلسوف الإسلامي أبو حامد الغزالي، كيف كادت نفسه تتمزق إربا من شدة ما كان يعانيه من تردد، حين أحس بالرغبة في اعتزال حياته المدنية بكل ما جاءته به من مجد وجاه، ليلوذ بحياة بسيطة ساذجة متقشفة زاهدة. وأخيرا يأتي بحكاية الشاعر الأمريكي (ثورو) الذي ضاق بالتفافس الحاد الذي يتدافع الناس فيه بالمناكب، سعيا وراء أدوات العيش التي ألَهَتْهُمْ عن العيش ذاته، وفكّر وتدبّر، فلم يجد مهربا إلا الحدّ من حاجاته حتى لا يضطر إلى العمل إلا بضع ساعات قليلة. لكن المدينة لم تسمح له بمثل هذا الذي تمنّاه عندما فرّ إلى غابة عاش فيها مع الحيوان الذي أحبه، لأنه أحبّ الحياة في شتى صورها، لكنه لم يسترح هناك إذ ذهب إليه في مكمنه جباب الضرائب يطلبون منه ضريبة للدولة، فأبى أن يجيبهم إلى ما طلبوه احتجاجا على سياسة الدولة عندئذ

في إرغام العبيد الفارين على العودة إلى المزارع التي كانوا يعملون فيها لسادتهم، فقبض عليه وسيق إلى السجن.

وفي ختام المقالة نقرأ سؤالاً ألقاه (ثورو) على نفسه وأجابه بنفسه:

. ما الذي يبرر للإنسان أن يعيش حياته؟

. إنه لا مبرر للإنسان أن يحيا لحظة واحدة إن ملك الدنيا بأسرها وفقد نفسه⁽²⁷⁾.

إننا، في مجتمعاتنا المعاصرة، لدينا حاجة ماسة إلى هذا المفهوم عن السعادة، وذلك لتفشي النزعة الاستهلاكية المفرطة بين طهرانينا، والاقتصاد المتخلف في أغلب أقطارنا. والمعروف أن الإنسان الاستهلاكي غالباً ما يتصف بهذه الصفات السلبية التي تحول دون تحقيق التنمية:

1. ضعف أو غياب الفكر والعقل عنده، فهو قلما يقرأ، ولا يعرف التأمل والتفكير. من هنا يغلب التقليد على كل جوانب حياته، ولا يكون للفكر أي تأثير في سلوكه.

2. تترتب على الصفة الأولى، صفة أخرى هي (الخواء الباطني) أو النفسي الذي يجعل صاحبه يبحث عما يسد به هذا الخواء بأشياء سلبية وضارة.

3. التفريط الذي يجعل الإنسان الاستهلاكي أن يتخلى سريعاً عن أشيائه، واستبدالها بأخرى. فهو لا يعرف أي تعاطف سواء أكان هذا التعاطف متعلقاً بالإنسان، أم بالأشياء التي يمتلكها.

4. غياب لذة العمل والإنتاج عند الاستهلاكي إذ إن لذته الكبرى تكمن في الاستهلاك وحده⁽²⁸⁾.

وبعد، فالمقال دعوة إلى التربويين والمثقفين، على نحو عام، لاستثمار هذه المقالات ذات النزعة العقلانية لزكي نجيب محمود، في ميادين التربية. هذه المقالات التي تجسد القيم والممارسات الحضارية الرفيعة التي عرضنا لها في مقالنا، وتعلمنا، في الوقت نفسه، كيف نستطيع الوصول إليها وتحقيقها على أرض الواقع. وثمة، في المقالات، ما يعين على النجاح في تحقيقها تربوياً، وذلك لأسلوبها الأدبي الذي ينأى بالمقالات عن أسلوب الوعظ والإرشاد المباشر الذي ثبت عدم جدواه في ميادين التربية. وهذا الأسلوب الأدبي يقوم على العناية باختيار الألفاظ وتراكيب الجمل، واستخدام السرد (الحكاية)، والتناصات المختلفة، والصور المجازية، كل ذلك يثري ما في المقالات من أفكار وتوجهات، ويدعمها ويسهل وصولها إلى نفوس الطلبة

وعقولهم. وإني متفائل بأننا، إذا استطعنا إيصال هذه المبادئ الحضارية إلى طلبتنا وشبابنا، وجدنا أنفسنا نخطو في طريق التنمية والتقدم. لأن، في إشاعة هذه المبادئ في مجتمعاتنا، خلاصنا من أغلب المشكلات الاجتماعية والسياسية التي نعانيها.

الهوامش:

1. نقلا عن: التربية العامة: مجموعة مؤلفين: 23
2. نحن والتتوير: مصطفى محسن: 11
3. الثقافة والتنمية: 44
4. نحن والتتوير: 68.67
5. ينظر: المسألة الثقافية في الوطن العربي: محمد عابد الجابري: 103
6. المصدر نفسه: 104.105
7. تجديد الفكر العربي: زكي نجيب محمود: 310.311، وينظر للباحث: التتوير في مقالات زكي نجيب محمود، مجلة العربي، عدد مايو 2013.
8. قصاصات الزجاج: 290
9. نحن والتتوير: 38.37
10. الإنسان المهدور: 16
11. قصاصات الزجاج: 183.184
12. المصدر نفسه: 272
13. الكوميديا الأرضية: 141
14. مجتمع جديد أو الكارثة: 259.261
15. المصدر نفسه: 262
16. المصدر نفسه: 10.9
17. قصاصات الزجاج: 255.256
18. ينظر: قصاصات الزجاج: 138.142
19. المصدر نفسه: 142
20. المصدر نفسه: 291
21. إلى ولدي: أحمد أمين: 38.39
22. الكوميديا الأرضية: 57
23. ينظر: المصدر نفسه: 56.63
24. للاطلاع على هذه الآراء، ينظر: السعادة موجز تأريخي: نيكولاس وايت.
25. فيض خاطر: 4/179
26. قصاصات الزجاج: 117.118
27. المصدر نفسه: 117.121
28. الوظيفة الخلقية والاجتماعية للجامعة: 78.

المصادر:

1. إلى ولدي: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت.
2. الإنسان المهدور: مصطفى حجازي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط2، 2006.
3. تجديد الفكر العربي: زكي نجيب محمود، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط5/1978.
4. التربية العامة: مجموعة مؤلفين، جامعة دمشق، 2014.
5. التنوير في مقالات زكي نجيب محمود: فائق مصطفى، مجلة العربي، مايو 2013.
6. الثقافة والتنمية: أبحاث ومناقشات ندوة مهرجان القرين الثقافي الرابع عشر، الكويت، 2010.
7. السعادة موجز تأريخي: نيكولاس وايت، ترجمة سعيد توفيق، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2013.
8. فيض الخاطر: أحمد أمين، المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، 2010.
9. قصاصات الزجاج: زكي نجيب محمود، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1974.
10. الكوميديا الأرضية: زكي نجيب محمود، دار الشروق، بيروت، القاهرة، 1974.
11. مجتمع جديد أو الكارثة: زكي نجيب محمود، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ط1، 1993.
12. المسألة الثقافية في الوطن العربي: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت، 1999.
13. نحن والتنوير: مصطفى حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2006.
14. الوظيفة الخلقية والاجتماعية للجامعة: فائق مصطفى، دار سرمد، السليمانية، 2010.